



مركز المسبار للدراسات والبحوث

Al Mesbar Studies & Research Centre

الإسلاميون ومناهج التعليم

في العالم العربي وتركيا وإيران

الكتاب 133 يناير (كانون الثاني) 2018

كتاب شهري يصدر عن مركز المسبار للدراسات والبحوث

منهاج التربية الإسلامية في مدارس حزب الله

عبدالغني عماد(*)

في أدبيات الصراعات والثورات تحدد الأيديولوجيا هوية المتصارعين والفاعلين؛ لكنها لا تحدد بالضرورة النتائج، هي تلعب دوراً حيوياً في خدمة المشروع السياسي والأيديولوجي للفاعلين من أجل تحقيق الأهداف أولاً أو من أجل البقاء والاستمرار في نهاية الصراع. وكما يحتاج كل صراع إلى خطوط إمداد آمنة لتعويض الخسائر المادية، يحتاج أيضاً إلى خطوط تغذية مستقرة للاستقطاب والتعبئة والإقناع، لذلك تلجأ غالبية الأحزاب والقوى المتصارعة إلى أدلجة صراعاتها وحروبها وتسييسها.

(*) أستاذ جامعي وباحث أكاديمي لبناني متخصص في الحركات الإسلامية.

في هذه الحالة يتطلب الأمر أعلى درجات من القدرة على الإقناع والتسويق والاستثمار في البيئة المستهدفة (طائفة، إثنية، مذهب، جماعة مهمشة)؛ وهذا لا يتحقق بالخدمات العابرة والظرفية التي تلبى حاجات مادية قصيرة المدى فقط، مثل توزيع المساعدات الغذائية وتوفير الخدمات الصحية، إذ إن مثل هذه الحاجات قد يمكن توفيرها من جهات أخرى في حالة الانكسار والتراجع. الاستثمار الفاعل والمجدي الذي يضمن اجتذاب البيئة المستهدفة هو الذي ينجح بكسب ولائها، من طريق إعادة تشكيل «هويتها» وشحنها بكل ما يخدم المشروع السياسي والأيدولوجي للقوى القائمة بالصراع، وهذا الأمر يتطلب خدمات من نوع آخر يتوافر به نمو «الوعي الجماعي» لإعادة صوغه من خلال مؤسسات وخدمات تربوية ولكن بعيدة المدى في تأثيرها.

تصبح التربية في هذا المجال وظيفية «أدائية» وسلاحاً أيدولوجياً فتاكاً وخصوصاً حين يتم استخدامها وسط الجماعات الدينية والأقليات الطائفية في المجتمعات التقليدية حيث الولاءات الأولية راسخة وقوية؛ وفيها عادة ما يكون الانتماء الديني والقبلي والاثني الأساس الذي تقوم عليه الدولة، فهي تبدأ في الأسرة والتي من خلالها يتم إكساب الأفراد كثيراً من منظومة القيم المستمدة من الموروث الثقافي. والأقليات عموماً في المجتمعات التقليدية تتميز بخصائص ديموغرافية وسوسولوجية وتاريخية، تجعل موروثها الثقافي غنياً بالخصوصيات والرموز والطقوس، لاسيما في مجال العلاقة مع الآخر، وقد استغل المستعمر الأجنبي هذه الخصوصيات مستعيناً ببعض الأدوات في الداخل من خلال تغذيته للنعرات والانقسامات الطائفية والعرقية لإحكام سيطرته على المجتمع كله.

إشكالية حماية الأقليات صاحبة المظلوميات التاريخية كانت -وما تزال- معبراً للتدخل الأجنبي الذي تعددت أشكاله وشعاراته، ففي لبنان -على سبيل المثال- اتخذ الشكل التربوي عبر البعثات التبشيرية منذ القرن الثامن عشر، فانتشرت المدارس الأجنبية والإرساليات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية والأميركية، وبلغت أوجها مع تأسيس الكلية السورية الإنجيلية 1866 التي أصبحت الجامعة الأميركية

بدءاً من 1920، وجامعة القديس يوسف (اليسوعية) 1875، وغزت المدارس التبشيرية كل المحافظات اللبنانية. وهذا ما يمكن ملاحظته بعد الثورة الخمينية التي عمدت إلى دعم المؤسسة الدينية في المجتمع الشيعي، فتضاعف عدد المعممين بشكل كبير وخلال فترة بسيطة، وترافق ذلك مع فيض المؤسسات الاجتماعية والتعليمية والإعلامية والخدماتية والصحية التي يديرونها.

بقي التعليم في لبنان بعد الاستقلال في حضان الطوائف على الرغم من قيام التعليم الرسمي بأعباء كبيرة؛ إلا أن ما يزيد عن ثلثي المتعلمين في لبنان (70%) ما يزالون يتلقون تعليمهم في المدارس والجامعات الخاصة التي تخضع بغالبيتها للطوائف والمذاهب المختلفة. فقد أعطى الدستور اللبناني للطوائف حقوقاً ثابتة في التعليم والأحوال الشخصية، وحصّن هذه الحقوق بنصوص غير قابلة للتعديل إلا بنصاب دستوري من شبه المستحيل تأمينه في لبنان. كما أن انسحاب الدولة من ساحة التعليم الديني في المدارس الرسمية، قابله إفساحها المجال أمام مؤسسات الطوائف لكي تقوم بملء هذا الفراغ، الأمر الذي فتح الباب واسعاً أمام كثير من الأفراد والمؤسسات والأحزاب والجمعيات من كل الطوائف بمختلف مذاهبها لمضاعفة جهودها وتوسيع انتشارها، لحماية رعيته والحفاظ على تعاليمها من خلال تنشئة الأطفال والتلاميذ عليها. ومما يزيد الأمر خطورة دخول الأحزاب والحركات الدينية على خط التربية والتعليم بشكل عام، بحيث أصبح لها معاهدها ومدارسها وجامعاتها ومناهجها ومشايخها ومفتوها وكتبها الدينية ومراجعتها الخاصة وعلاقاتها الممتدة إلى خارج حدود الوطن، وطرق تمويلها بعيداً من رقابة الدولة المتنوعة.

ومع نشأة الإسلام السياسي الشيعي تدفقت على لبنان، وخصوصاً بعد الثورة في إيران، كوادر وقيادات وهيئات، وتوافر لها قدر كبير من التمويل والدعم على المستوى السياسي والاجتماعي والثقافي. قبل ذلك اقتصر الواقع التربوي للشيعية في القطاع الأهلي والخاص على المدرسة العاملية التي تأسست عام 1923 ومارست دوراً ريادياً لسنوات طويلة، عبر فروعها في بيروت والجنوب وتخرج فيها نخبة من المثقفين الشيعية الذين لعبوا أدواراً بارزة في المجتمع اللبناني. ومع قدوم السيد موسى الصدر

إلى لبنان وخلال المراحل الأولى للحرب اللبنانية، انطلقت مؤسسات أمل التربوية عام 1962 لتنتشر في مختلف مناطق المجتمع الشيعي⁽¹⁾ عبر العشرات من المدارس والمعاهد والمجمعات، إلا أن المبادرة الأبرز تجسدت في مشروع المبرات الخيرية⁽²⁾ الذي أطلقه السيد محمد حسين فضل الله التي أطلقها عام 1978 انطلافاً من مبرة الإمام الخوئي لتصل إلى أكثر من ستين مؤسسة بينها أكثر من (17) مؤسسة تربوية منتشرة في كل المحافظات اللبنانية.

مدارس حزب الله: الشبكة، التوسع، الانتشار

بدأ حزب الله نشاطه التربوي منذ تأسيسه، أواسط الثمانينيات، من خلال ما يعرف بـ«التعبئة التربوية»: من الواضح أن مصطلح التعبئة مستورد من قاموس الثورة الإسلامية في إيران التي يقابلها باللغة الفارسية مصطلح «باسيج»⁽³⁾، وقد تم استخدامه تواصلًا مع العمل الطلابي الشبابي، حيث أنشأ الحزب «التعبئة التربوية» التي هي بمثابة الذراع الطلابية له، حيث انتشرت فروعها في مختلف الجامعات والثانويات، ومن ثم بدأت تهيمن على الفروع الرسمية للمدارس والثانويات وفروع الجامعة اللبنانية التابعة لوزارة التربية والتعليم في الدولة اللبنانية، والموجودة فيها بكثافة وخصوصاً في المناطق والأحياء ذات الكثافة الشيعية. وهي تعرف عن أهدافها بوضوح بأنها: «دعم المقاومة وتعميم ثقافتها وتجديرها ورفضها بالكفاءات المتخصصة، والتزام القضايا الكبرى للوطن والأمة»⁽⁴⁾.

(1) انظر للمزيد من التفصيل الرابط التالي:

<http://www.amaleducation.com/ar-about-us>

(2) لمزيد من التفصيل عن جمعية المبرات الخيرية على الرابط التالي:

https://shakirycharity.org/index_A.php?id=149&news_id=4888

(3) نشأت في إيران أيام الحرب الإيرانية-العراقية لتساند القوات العسكرية في الدفاع عن الدولة، وأخذت دورها عندما أطلق الخميني عبارته الشهيرة لإعداد جيش العشرين مليون، ولهذه القوات الشعبية برامج عسكرية كدورات ومناورات مختلفة أثناء السنة لبقاء في حالة الجهوزية الدائمة.

(4) انظر الموقع الرسمي للتعبئة التربوية على الرابط التالي:

<http://www.tarbaweya.org>

تعكس أنشطة التعبئة التربوية مواقف الحزب وإيقاع ديناميته السياسية وتحالفاته مع القوى الأخرى في الجامعات، إلا أن الميدان الأبرز لهيمنته يبقى فروع الجامعة اللبنانية في الجنوب، ومجمع الحدث المركزي للجامعة حيث تقيم التعبئة أنشطة واحتفالات متنوعة (معرض سيد الشهداء، يوم الشهيد، وقفات تضامنية في مناسبات إسلامية أو وطنية، مسيرات في حرم الجامعة، لقاءات ثقافية ومهرجانات في مناسبات متنوعة). أما في الجامعات الخاصة، فغالباً ما تُجرى انتخابات طلابية في أجواء تنافسية حادة مع قوى سياسية معارضة له، خسر فيها حزب الله مع حلفائه في الانتخابات الطلابية لعام 2017 في الجامعة الأميركية على سبيل المثال، إلا أن مثل هذه الانتخابات جرى تعطيلها في الجامعة اللبنانية منذ سنوات عدة، خوفاً من أن تتطور إلى اشتباكات بين المتنافسين.

لا تكتفي التعبئة التربوية بهذا النوع من الأنشطة، فلديها حزمة واسعة منها مثل تقديم الخدمات للطلاب بدءاً بتنظيم الدورات التدريبية لهم، وتأمين المقررات والكتب والدورات الثقافية، وصولاً إلى الرحلات والمخيمات الصيفية، ودورات الإعداد والتأهيل، وتكريم المتفوقين. يُعنى الحزب أيضاً بقطاع المعلمين ويخصص لهم حيزاً مهماً، حيث ينتظمون داخل أطر مؤسساتية تهدف إلى إدخال الفعالية إلى دورهم وفي محيطهم، واستقطاب زملائهم إلى أطر الحزب. وهو ما ينطبق على مختلف مجالات المهن الحرة (من محامين ومهندسين وأطباء).

وفي هذا السياق أولى الحزب اهتماماً بالغاً بالتعليم المدرسي وإنشاء المؤسسات التربوية، فأنشأ المؤسسة الإسلامية للتربية والتعليم التي أسست شبكة مدارس المهدي، ومن خلالها أنشأ الحزب عدداً ضخماً من المدارس، بلغت (15) مدرسة غالبيتها منتشرة في بيروت والبقاع وجنوب لبنان، حيث الحواضن الشيعية ذات الكثافة السكانية العالية (3) منها في ضاحية بيروت الجنوبية و«8» في الجنوب اللبناني و«4» في محافظة البقاع، ويوجد لها فرع واحد في قم بإيران مخصص لأبناء الجالية اللبنانية) وقد بدأت المؤسسة عملها منذ عام 1993 بثلاث مدارس، وتحتضن مدارس المهدي اليوم ما يقارب خمسة وعشرين ألف طالب في مختلف مراحل التعليم

ما قبل الجامعي - وفق الإحصاءات التي أعلنتها الجمعية- وتولي الجمعية اهتماماً خاصاً للمتفوقين بحيث تخصص لهم منحاً دراسية تصل قيمتها إلى (45%) من مجمل القسط المدرسي⁽⁵⁾. وهي تعرف نفسها وتحدد رسالتها ب:

1- بناء جيلٍ رساليٍّ متعلِّمٍ واعٍ يلتزمُ القيمَ الإسلاميَّة السامية. 2- تقديم أنموذج تربوي تعليمي إسلامي رائدٍ يجمعُ بينَ التربية الإسلاميَّة الأصيلَّة والتعليم العصريِّ المميِّز. 3- إعداد إنسانٍ يتحلَّى بالروح الإيمانيَّة والجهاديَّة والمواطنيَّة الحقَّة، والفعاليَّة والإنتاجيَّة، وذلك من خلال إنشاء المدارس، وإعداد المناهج وكل ما له ارتباط بالشأن التربوي، معتمدة على جهاز تعليميٍّ وتربويٍّ رساليٍّ، مدرِّبٍ ومحترفٍ.

ثمة شبكة تربوية موازية ومتكاملة يشرف عليها حزب الله عبر كوادره، وهي تتجاوز المؤسسة الإسلامية للتربية والتعليم، التي أسست شبكة مدارس المهدي لتطاول المؤسسات التربوية الإيرانية الممولة بشكل مباشر من مؤسسات رسمية تابعة رسمياً للدولة الإيرانية وترعاها السفارة عبر أنشطتها الثقافية، وتتطاول أيضاً مؤسسات تربوية شيعية أخرى أصبحت - عملياً - جزءاً من هذه الشبكة مثل، مدارس وثانويات المصطفى التابعة لجمعية التعليم الديني⁽⁶⁾، التي يشرف عليها نعيم قاسم (نائب الأمين العام لحزب الله) والمنتشرة مدارسها الست بين بيروت والضاحية الجنوبية وصور والنبطية، وتستوعب ما يقدر بخمسة عشر ألف طالب من المرحلة الابتدائية إلى المرحلة الثانوية. هذا بالإضافة إلى مدارس الإمداد المتخصصة برعاية الأيتام والأسر التي لا معيل لها، والتي أنشأت خمس مدارس تربوية إحداها مخصصة للتعليم المهني بالإضافة إلى أربعة مراكز تربوية متخصصة لتأهيل ذوي الحاجات

(5) انظر الموقع الإلكتروني للمؤسسة وشبكة مدارس المهدي على الرابط التالي:

<http://www.webees-lb.com/almahdiproject25122012/qs/index.php>

(6) تحدد الجمعية أهدافها على صفحتها الإلكترونية، ونذكر منها: الالتزام بالمبادئ والقيم الإسلاميَّة في الفكر والسلوك، الجمع بين البناء التربويِّ الدينيِّ والتَّمكين الأكاديمي، المواكبة الفعَّالة للمتعلِّم تعليمياً وتربوياً داخل المدرسة وخارجها والميزات المكتملة: أداء صلاة الجماعة داخل المدرسة للمكلفين، وإقامة احتفالات التَّكليف الشَّرعي للمتعلِّمات وتربية المتعلِّمين على نهج الجهاد والمقاومة والمواطنة.

تعريف خدمات مدارس المصطفى، موقع جمعية التعليم الديني الإسلامي، على الرابط التالي:

<http://www.islamtd.org/#!Schools>

الخاصة، تغطي مناطق الوجود الأكثر حاجة في المجتمع الشيعي⁽⁷⁾.

وثيقة التحول البنيوي للتربية والتعليم

انطلاقاً من التزام الحزب بالثورة الإسلامية في إيران ومرجعياتها الفقهية، يجد المتابع اهتماماً بارزاً بوثيقة التحول البنيوي للتربية والتعليم، الصادرة عن الجمهورية الإسلامية في إيران على الموقع الإلكتروني لجمعية التعليم الديني، المشرفة على مدارس المهدي التابعة لحزب الله، وهي الوثيقة التي تلخص فلسفة التربية والتعليم في إيران، والتي يلتزم بها الحزب، والصادرة عام 2010.

تنتقل الوثيقة في بندها الأول من التعاليم القرآنية في ضوء محورية التفسير الإمامي والولائي، بهدف تحقيق «مجتمع العدل العالمي المحدد بالمجتمع المهدي»⁽⁸⁾، وتؤكد أن الأقليات الدينية المعترف بها في الدستور ستلتزم بالقوانين الموضوعية. وهي تعتبر أن التقاليد الأساسية للجمهورية، والتمهيد لظهور الإمام المهدي، وولاية الفقيه، هي رمز هوية الإسلام الأصيل ومصدر حياته وبقائه في زمن الغيبة، وذلك تواصلًا مع الإرث النظري والعملية للخميني، ومفاهيم الثورة المكرسة بالدستور استناداً إلى ولاية الفقيه.

تعتبر الوثيقة أن عملية التربية والتعليم في الميادين كافة، العقائدية والعبادية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والفنية والاقتصادية والمهنية والعلمية والتقنية، يجب أن تتطابق مع النظام المعياري الإسلامي والمباني المستوحاة من القرآن وسنة المعصومين، بحيث يجب أن تتشكل هوية التلامذة بأبعادها الفردية والعائلية

(7) تعتبر مدارس ومعاهد الإمداد فرعاً لمؤسسة لجنة إمداد الإمام الخميني، التي تأسست في إيران عام 1979 وهي في فرعها اللبناني بدأت عملها بعد عام 1987، وأصبح لديها خمس مدارس ومعاهد تربوية فضلاً عن أربعة مراكز تربوية متخصصة للرعاية والتأهيل، وشبكة ضخمة من مراكز الرعاية الاجتماعية والخدمات المتخصصة ولزيد من التفصيل انظر موقع جمعية الإمداد الخيرية الإسلامية-لبنان، على الرابط التالي:

<http://www.alemdad.net/article.php?id=1473&cid=529#.Wd9nHTISzcs>

(8) وثيقة التحول البنيوي للتربية والتعليم الصادرة عن المجلس الأعلى للثورة الثقافية ووزارة التربية والتعليم في الجمهورية الإسلامية الإيرانية (2011)، ص 11.

والاجتماعية في ضوئها ووفق معاييرها⁽⁹⁾. وفي سبيل ذلك تولي أهمية بارزة لإعداد المعلمين للقيام بهذه المهمة، الذين يقع على عاتقهم امتلاك البصيرة والتحول إلى أسوة حسنة وتكوين الروح الجهادية والأبعاد الإنسانية لهوية التلامذة، وتمتية قدراتهم العقلية. تشدد الوثيقة أيضاً على تقوية الميل والتوجه للغة الفارسية وآدابها، لا تهمل الوثيقة الدور الفاعل للأسرة وضرورة تفعيل دورها ومشاركتها، كما تشدد على ضرورة التكامل مع الدور التربوي للأماكن الدينية ووسائل الإعلام، وتفعيله بما يخدم الهوية الإسلامية لإقامة المجتمع المهدوي المنشود⁽¹⁰⁾.

جاءت هذه الوثيقة في إطار «الخطة العشرينية» التي أعدها المجلس الأعلى للثورة الثقافية في إيران، وشارك فيها علماء وتربويون وفقهاء شيعة من بلدان عدة فاق عددهم (500)، وكان الهدف منها كما يفيد محمد عليق (مدير لجنة التأهيل التربوي في مدارس المهدي)، هو إنتاج وصوغ «فلسفة التربية الإسلامية الجديدة» التي تحدد خصائصها وأهدافها ومبانيها وأساليبها على المستوى النظري، وترسم مسارات عملية التحول التربوي المطلوب، ويقول: «لقد قمنا في المؤسسة الإسلامية للتربية والتعليم -مدارس المهدي- بترجمة هذه الوثيقة وكذلك المباني النظرية، ونقوم بمطالعتها والإفادة منها باعتبارها برنامج عمل للفكر التربوي الإسلامي وأساليب تحقيقه في المجتمع»⁽¹¹⁾، ويشير إلى أن هذه الخطة تتطلب تكاملاً وتعديلاً في دور جميع البرامج الثقافية والتربوية والمدرسية والتربية العامة (إذاعة وتلفزيون وأئمة المساجد والقطاعات المختلفة).

هوية المتربي والأنموذج الذي يجب أن يتربى عليه، هو جوهر الفلسفة الجديدة المعتمدة، فضلاً عن التشبيك مع المؤسسات الدينية خارج المدرسة سواء من خلال حضور العلماء من ذوي الكفاءة لإعطاء المحاضرات في المدارس أو خروج التلامذة

(9) المرجع السابق، ص 12-13.

(10) نفسه، ص 14.

(11) من مقابلة مع محمد عليق (مدير لجنة التأهيل التربوي في مدارس المهدي)، تلفزيون المنار، 12 / فبراير (شباط) 2014، على الرابط التالي:

<http://archive.almanar.com.lb/article.php?id=744995>

إلى المؤسسات الدينية والتفاعل مع أنشطتها وعلمائها، مما يعد رؤية جديدة للتفاعل بين المدرسة والمحيط الاجتماعي والثقافي. لذلك كان تشديد المرشد الأعلى الخامنئي في محاضرة تربوية له على أن المسؤولية الكبرى في نظام التربية والتعليم تقع على الحوزات العلمية الدينية التي تحدد مسارات التربية الإسلامية، وتالياً يقع على المعلم المربي دور أساسي في هذا المجال، فهو الذي يغيّر العادات ويمكنه التفوق حتى على الدور التربوي للوالدين، فالمعلمون هم صناع الإنسان. التربية والتزكية كما يطرحها الخامنئي تبدأ من المراحل الابتدائية⁽¹²⁾.

هذه الرؤية لا علاقة لها بما خطه المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان من خلال لجنة التربية الدينية التابعة له، وهو المجلس المعني حصراً بتنظيم شؤون الطائفة الشيعية استناداً للقانون رقم (67/72) وتاريخ 1967/12/19 والذي تنص المادة (28) من نظامه الداخلي على أن الهيئة الشرعية للمجلس تتولى العمل على تعميم التعليم الديني في المدارس، ووضع برامج متطورة صحيحة، وتأليف كتب، وإيجاد دورات للمتعلمين تحقيقاً للغاية المذكورة.

والواقع أنه لم يسبق لأي من العائلات الروحية في لبنان أن أقدمت على وضع منهج لتعليم مادة التربية الدينية؛ يكون متماسكاً ومتناسقاً وفقاً لغايات تربوية واضحة ومحدودة، فهناك كتب تعليم ديني بلا مناهج، إذ ليس هناك تعددية دينية ومذهبية فحسب، بل هناك تعددية في التعليم الديني وفي التوجيه الإيماني ضمن المذهب الواحد، وهذه التعددية قابلة للتزايد بتزايد عدد مؤلفي الكتب⁽¹³⁾، لأن كل مؤلف ينطلق في كتابه استناداً إلى الخلفية الفقهية التي يعتمدها، فهناك بعض المدارس والمؤسسات الشيعية التابعة لمرجعيات شيعية تاريخية كالمدرسة العاملية، أو المبرات الخيرية الإسلامية، أو مؤسسات السيد محمد حسين فضل الله وغيرها،

(12) نعيم، قاسم (نائب الأمين العام لحزب الله): الولي المجدد، من محاضرة لل خامنئي لدور المعلم.. أفكار مستقاة من الكتاب تحت عنوان «التربية والتعليم»، صادر عن دار المحجة البيضاء، ط 2014، ص 405-428.

(13) يوسف، مروة، مناهج التعليم مادة التربية الإسلامية كما وضعتها لجنة التربية الدينية في المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، معهد طرابلس الجامعي، أعمال المؤتمر التربوي الإسلامي، 1996، ص 155.

تعتمد مناهج في التربية الدينية تختلف عن تلك المعتمدة في الشبكة التي يديرها حزب الله.

والواقع أن المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى قد خطا خطوة مهمة لجهة وضع منهج تجريبي لمادة التربية الدينية؛ وإعداد كتب للمعلمين والتلاميذ. ووضع هذا المنهج موضع التطبيق للمرحلة التجريبية الأولى للروضات عام 1990، وتلتها طبعات لسنوات المرحلتين الابتدائية والمتوسطة، كما وضعت لجنة التربية والتعليم في المجلس نفسه منهجاً للمرحلة الثانوية، وهي تعمل على تطوير هذه الكتب، ومراجعة محتوى المنهج المعتمد⁽¹⁴⁾. وقد أسهم هذا البرنامج في صوغ وتوحيد برامج متطورة للتعليم الديني وتوحيدها عند الشيعة، إلا أن المؤسسة الإسلامية للتربية والتعليم وجمعية التعليم الديني الإسلامية، صممت كتباً موازية لمدارس المهدي والمصطفى والإمداد، تركز على الجهاد والبطولة والهوية وولاية الفقيه، وتتسجم مع وثيقة التحول البنيوي للتربية والتعليم الصادرة عن المجلس الأعلى للثورة الثقافية في إيران.

ويطاول ذلك كتاب التاريخ في لبنان، الذي فشلت كل المحاولات لتوحيده، وترك الأمر في نهاية المطاف للمدارس والمؤسسات التربوية الخاصة وللطوائف كي تختار الكتاب المناسب، وهناك اليوم أكثر من خمس وعشرين سلسلة من كتب التاريخ معتمدة من قبل هذه المؤسسات، لتدريس مادة التاريخ في مدارس لبنان وثانوياته⁽¹⁵⁾، ولأن كتاب التاريخ يعتبر مدخلاً لبناء الذاكرة الجمعية يبقى موضوعاً خلافياً في المجتمع الطوائفي، ويتطلب تسوية ولو على حساب الحقائق التاريخية، وهو الأمر الذي لقي معارضة واسعة من مؤرخي الطوائف بحجة حرية التعليم، وأفضى بالمحصلة إلى أن أصبح لكل طائفة مؤرخوها، ولكل مؤسسة تربوية كتابها الخاص المعتمد للتدريس، ونماذجها التاريخية في البطولة والشهادة المتناسبة مع سرديتها التاريخية المتوارثة. وهو يستخدم اليوم وسيلة أيديولوجية أساسية في المدارس

(14) انظر: المؤتمر التربوي الإسلامي (1996). جمعية الإصلاح الإسلامية، معهد طرابلس الجامعي للدراسات الإسلامية، طرابلس لبنان، ص158-171.

(15) علماً أن المادة نفسها لم تحظ بأكثر من (3%) في المنهاج العام مقابل (18%) للرياضيات و(15%) للغة العربية أو الفرنسية.

الطائفية لنشر معرفة طائفية مشوهة تضمن ولاء التلميذ لزعيم الطائفة على حساب الولاء للوطن الواحد والموحد، من خلال نظام تعليمي غير مراقب ومتفلت من كل الضوابط التربوية والوطنية. وتستخدم معظم المدارس الطائفية الكتاب المدرسي وسيلة لتمرير أيديولوجية الجماعة الموحدة والمتماسكة في مواجهة جماعة أخرى. ولا يجد مؤلف كتاب التاريخ المدرسي حرجاً في تشويه الوقائع التاريخية المنشورة في المصادر التاريخية، وانتقاء ما يخدم زعماء الطائفة وتضخيم دورها في تاريخ لبنان⁽¹⁶⁾.

المدخل التربوي إلى التعبئة السياسية وإعادة بناء الهوية

من خلال شبكة المدارس هذه، يضمن الحزب توأماً شديداً للفعالية مع جيل من الناشئة والفتيان في بيئته الطائفية، وداخل مجتمعات وحواضر مدرسية وتربوية، حيث يمارس بدقة إدارة التناقضات العائلية والعشائرية، ويضع البرامج التوجيهية والتعبوية من خلال التنشئة الاجتماعية والتربوية الهادفة إلى إعادة تشكيل الهوية السياسية للشبيبة في لبنان. صحيح أن هذه المدارس تلتزم بالمنهج الرسمية التي تحددها وزارة التربية الوطنية، إلا أنها في المضامين التربوية والتوجيهات المنهجية واللاصفية التي تبثها وترسخها في عقول الطلاب، وخصوصاً في مقرر التاريخ والتربية الوطنية والتعليم الديني، تسهم في خلق وتصنيع الخصوصية الثقافية والمذهبية في أذهان الطلاب ولو بطريقة غير مباشرة، وهو ما يطرح بحدة وظيفة التعليم الخاص الذي يغلب عليه الطابع الطائفي والمذهبي في لبنان بشكل عام، ليس فقط بما يتضمنه أو يتم تسريبه في المناهج، ولكن أيضاً في طبيعة الأنشطة التي تقيمها هذه المدارس، والثقافة التي تشرها بين الطلبة، فمدارس المهدي والإمداد والمصطفى - على سبيل المثال - درجت على تعليم اللغة الفارسية ضمن مناهجها⁽¹⁷⁾،

(16) مسعود، ضاهر، أزمة كتاب التاريخ المدرسي في لبنان: رؤية مؤرخ، جريدة النهار اللبنانية، 7 سبتمبر (أيلول) 2009، على الرابط التالي:

<http://www.annahar.com/content.php?priority=1&table=kadaya&type=kadaya&day=Mon>

(17) انظر التحقيق الموسع في هذا المجال الذي قام به أنس راول وترجمته زينة أبو فاعور عن الإنجليزية وهو بعنوان (الفارسية من

فضلاً عن مخيمات وأنشطة (صفية ولاصفية) لا تغيب عنها شعارات الحزب والجمهورية الإسلامية الإيرانية، وصور الولي الفقيه والأمين العام لحزب الله، حتى في مستوى الروضات، والتي تملأ الجدران والملاعب والمساحات المحيطة بهم، فضلاً عن القصص المطبوعة بعناية والأفلام المنتجة والمبلجة بتقنيات عالية، حتى يبدو أن أي ارتباط بالحضارة العربية وبالعروبة يجب أن يخضع أولاً إلى التصفية المذهبية، ثم ثانياً إلى التقية الحزبية ذات المرجعية الإيرانية.

إدارة الوقت في المجتمع المدرسي الشيعي وتوظيفه لخدمة عملية التنشئة الاجتماعية المطلوبة مسألة مقدسة؛ وهي تتناغم مع الذاكرة الجمعية الشيعية واحتفالاتها وطقوسها ومناسباتها، من عيد الغدير إلى ميلاد الأئمة الاثني عشر ووفاتهم وعاشوراء، وذكرى الإمام الحسين، والسيدة فاطمة الزهراء، وغيرها من مناسبات تتخللها احتفاليات ضخمة (موكب، زيارات للمراقد المقدسة، تجمعات، مهرجانات، محاضرات، أناشيد...) والتي تتميز بغنى رمزي ومسرحي واضح، حيث الأسلوب والأداء والسردية البانية للمشارك الهوياتي الشيعي، الذي أصبح يحاكي الروزنامة الإيرانية من حيث المضمون والشكل. وتشير الدراسة المهمة التي أعدها توماس كاثرين إلى التشابه بين الأنموذج المعتمد في مدارس حزب الله وأنموذج التركيب الكاثوليكي التعليمي المعتمد في الإرساليات الأجنبية التبشيرية في لبنان، من حيث الأساليب والتقنيات والأدوات والمناهج⁽¹⁸⁾.

يولي حزب الله الفتیان والشباب أهمية كبيرة في عملية التفاعل والتأطير، وهو في سبيل ذلك لا يترك التربية محصورة ضمن أسوار المؤسسة التعليمية، بل يسعى ضمن استراتيجية إدارة الوقت إلى إدارة أوقات الفراغ بنشاطات لاصفية تنطلق من هذه المدارس باعتبارها مصانع للهوية وبيئات حاضنة، لذلك عمد إلى تأسيس

خصوصيات التعليم في الضاحية)، حيث يستطلع التدايعات الثقافية لتزايد ظاهرة تعليم الفارسية في عديد من مدارس الشيعة في لبنان، استناداً إلى مقابلات وزيارات ميدانية لبعض هذه المدارس، ومقابلات مع مدراء ومسؤولين، انظر الرابط المختصر التالي: <http://cutt.us/JWsSx>

(18) Le Thomas Catherine, Les écoles chiites au Liban. Construction communautaire et mobilisation politique. Paris, Karthala-IFPO, 2012. p.149

جمعية كشافة المهدي⁽¹⁹⁾ منذ عام 1985 على الرغم من أنها لم تتل الترخيص الرسمي من وزارة التربية الوطنية والمديرية العامة للشباب والرياضة إلا عام 1992، ثم انضمت رسمياً إلى الاتحاد الكشفي اللبناني بداية عام 1997، وهي اليوم من أنشط الجمعيات الكشفية في لبنان وأبرزها.

تتبنى «جمعية كشافة المهدي» أهداف الحركة الكشفية ومبادئها وطريقتها، كما نصت عليها المنظمة الكشفية العالمية والعربية واتحاد كشافة لبنان، ولا تختلف عنها سوى في الخلفية التاريخية والعقائدية. فهي تلتزم بمفاهيم الإسلام وفق المذهب الشيعي الاثني عشري، وتغرس في الناشئة عقيدة ولاية الفقيه. وهي اليوم تعتبر من الجمعيات الكشفية الكبيرة العاملة في لبنان، حيث تنتشر في معظم الأراضي اللبنانية، وخصوصاً في بيروت والبقاع والجنوب، وتجاوز عديدها بحسب إحصاء أعلنته الجمعية عام 2005 خمسة وأربعين ألفاً موزعة على خمس مفاوضات: بيروت، جبل لبنان، الجنوب (وتتقسم إلى مفاوضات: جبل عامل الأولى وجبل عامل الثانية)، البقاع، الشمال، والتي يواكبها مجموعة مفاوضات مختصة (التدريب والبرامج العامة، الإعلام والفنون، الإدارة والممتلكات، الموارد البشرية وشؤون الأفراد، العلاقات العامة، المرشدات، الإنترنت، مجلة المهدي، التفتيش).

تتوزع نشاطات الجمعية على جوانب عديدة أبرزها: تدريب الجواله، والقيام بنشاطات بيئية وتوجيهية وترفيهية، إلا أن المتصفح للموقع الإلكتروني للجمعية، يلاحظ أن غالبية الأنشطة يغلب عليها طابع المشاركة في إحياء المناسبات الاحتفالية والأنشطة الدينية والحزبية الخاصة بالحزب وتنظيمها، فعلى سبيل المثال نلاحظ في عينة من الأنشطة قمنا بتتبعها في زيارتنا⁽²⁰⁾ للموقع الإلكتروني شملت آخر (20) نشاطاً للجمعية، تبين أن بينها (9) أنشطة لمفاوضات مختلفة استهدفت إحياء مناسبات دينية ومجالس عزاء ومسيرات عاشورائية وما شابه ذلك و(5) أنشطة

(19) انظر موقع جمعية كشافة الإمام المهدي، على الرابط التالي:

<http://www.almahdiscouts.net/essaydetails.php?eid=35&cid=6>

(20) جرت زيارة الموقع بتاريخ 2014/12/3.

تكريم بعضها يتصل بما سبق، ونشاطاً بيبئياً واحداً، وندوة ثقافية واحدة جاءت تحت عنوان: «بناء الشباب من خلال نماذج عاشوراء».

تصدر الجمعية مجلة تحت اسم «مجلة مهدي»، وهي مختصة بالفئة العمرية (8-13 سنة) وهناك أعداد مخصصة بالفئة (4-7 سنوات) وهي توزع على شبكة مدارس المهدي. وقد نشر المدون خالد علم الدين دراسة تحليل مضمون مصوّر لبعض أعداد هذه المجلة، ونشر بعض ما تحتوي على صفحته، مثل نصائح الخميني والخامنئي، وتدور موضوعاتها الرئيسية حول الاستشهاد والمقاومة، مصحوبة برسوم أغلبها بنادق ودبابات وعبوات. وتبدأ المجلة بمقدمة ترشد الأهل إلى كيفية تعليم أبنائهم فكر المقاومة، وتقترح عليهم بعض النظريات في هذا المجال. في أجزاء أخرى تتضمن صفحات التلوين معدات عسكرية، كما تمتحن المجلة الأولاد عبر تمرين متعلق باعتداء بقنبلة ومزين ببعض الأسلاك الشائكة، وألعاب مثل: ساعد الأرنب على اجتياز حقل الألغام، أو اختبار مهاراتك في الرياضيات في عد الألغام، هذا عدا عن المتاهة المتعلقة بالألغام⁽²¹⁾... إلخ.

نجد في موقع مجلة المهدي فضلاً عن ذلك مجموعة من الأعداد الصادرة تحوي أيضاً قصصاً مختلفة، منها ما جاء تحت عنوان «مقاومون» أو قصص مجلة «بقية الله»، لكن أيضاً هناك أعداد غلب عليها الطابع الترفيهي، وصعوبات اللغة والتواصل وأنشطة (كرمس) وألعاب مع أطفال المهدي.

ويمكن تلمس الاهتمام بمرشدات المهدي وحركية هذا القطاع، والتي أصبحت جمعية مستقلة منذ 2003 ونالت الترخيص عام 2005، وتعرف عن نفسها بأنها جمعية إرشادية تستهدف الإرشاد التربوي والتفاعلي والاجتماعي للفتيات، وهي انضمت إلى الاتحاد اللبناني للمرشدات والدليلات، وأصبحت ممثلة في المفوضية العامة للاتحاد.

(21) Khaled, Alameddine, Hezbollah's Pre-Schooler's Guide to War: A Peek Inside Mahdi Mag, July 8, 2014, <https://khaledalameddine.wordpress.com/2014/07/08/hezbollahs-pre-schoolers-guide-to-war-a-peek-inside-mahdi-mag/>

تركز جمعية المرشدات عملها على: البراعم (من 6-8 سنوات) والزهرات (من 9-11 سنة) والمرشدات (من 12-14 سنة) والدليلات وهي الجواله (من 15-17 سنة). تصدر الجمعية مجلة «الرائدة» وهي مجلة فصلية ذات طابع إرشادي وتربوي وكشفي، وقد صدر منها (26) عدداً بتاريخ 2014/11/13. في الأنشطة الميدانية لا يختلف ما تقوم به الجمعية عما تقوم به جمعية «كشافة المهدي»، حيث يغلب عليها إحياء المناسبات الدينية، وهي بالإضافة إلى ذلك تركز على التكافل الاجتماعي ومكافحة الفقر المدقع والجوع، من خلال تنظيم جهود فتياتها لجمع مساعدات عينية وتقديمها إلى فئة محرومة أو شبه معدمة من المجتمع، وقد انتشرت هذه المشروعات في أكثر من منطقة عبر مفوضيات الجمعية واستهدفت (أيتاماً - فقراء - أرامل - مسنين - إقامة دروس تعليمية مجانية - رحلات ترفيهية، أياماً صحية مجانية...).

إلا أن أهم الإنجازات وأبرزها في هذا المجال هو مدينة الإمام الخميني الشبابية الكشفية⁽²²⁾، والتي تعتبر من أكبر المدن الكشفية الشبابية في لبنان والعالم العربي وأهمها، وهي مصممة لتستوعب جميع الأنشطة الصيفية وإقامة المخيمات والمهرجانات والدورات (الكشفية والرياضية والثقافية) والندوات والمحاضرات والمؤتمرات ومجالات الترفيه المختلفة من مسابح متعددة للصغار والكبار، وملاعب عديدة، ومطعم حديث، وموقف للسيارات، فضلاً عن مسجد ومركز صحي وقاعة مسرح متدرج ومتحف قيد الإعداد، وتقع في محافظة النبطية قرب بلدة زوطر الشرقية على مساحة (150000 م²)، وترتفع عن سطح البحر حوالي (500) متر وقد بنيت على أسس حديثة، بحيث تتميز بشبكة طرقات داخلية تسهل الحركة بأرجائها، فضلاً عن إنارة وحدائق عامة. وبالإضافة إليها يقيم الحزب معسكرات صيفية كشفية عديدة ويتعامل معها بسخاء بالغ، إذ ينخرط فيها الآلاف من الفتيان وأضحهما تلك التي تقام على ضفاف نهر الليطاني، والتي يتخللها برامج تدريب وألعاب تحاكي الأنشطة العسكرية بالإضافة إلى المقررات الدراسية لكشافة المهدي،

(22) لمزيد من التفاصيل حول مدينة الإمام الخميني الشبابية الكشفية على الرابط التالي:
http://mahdifamily.net/files/madinat_imam/index.html

مما يجعلها المصدر الرئيس والبيئة الأكثر حيوية لإمداد الحزب بالكوادر والقيادات الجديدة، لذلك يفرض الحزب حماية بالغة على هذه المعسكرات ومن النادر أن يمنح تصريحاً لأحد بالدخول إليها⁽²³⁾.

القولبة والتنميط بين التربية والتصفية والتعبئة

يتلازم مفهوم «التربية» في منهاج التربية الإسلامية المعتمد في شبكة مدارس «حزب الله» مع مفهوم «التعبئة» التي تشدد على عنصري الهوية الدينية- المذهبية، والتعبئة السياسية- العسكرية، وتوظف لهذه الغاية مختلف الأدوات المعرفية وأساليب التدريس والتقنيات الحديثة، وتحشد طاقات حيوية لاستثمار العلم والتكنولوجيا والمختبرات وغرف الحاسوب وغيرها من المعدات السمعية والبصرية، بما يحقق تشبيكاً متكاملًا بين النشاط الصفي واللاصفي لإحداث التعبئة والتغيير المطلوب في عقول التلاميذ.

يعتبر الحزب أن «الجهة التربوية والثقافية هي القاعدة الأساسية والمنطلق لكل أشكال التصدي والمقاومة» لذلك ذهب إلى تصميم كتب للتعليم الديني تركز على الجهاد والبطولات والرموز والشهادة مختلفة عن تلك التي صممها المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، والتي تعتمد المدارس الشيعية الأخرى والتي تتميز بأنها أقل تسيساً وأدلجة⁽²⁴⁾. يتعامل المنهاج المعتمد في المنظومة التربوية التي يشرف عليها حزب الله بحذر شديد مع المناهج الأجنبية المستوردة، والتي بتقديره «تتسلل إلى ساحتنا التربوية، فقد ثبت أنها تسعى لإلباس نفسها ثوباً محلياً من ناحية الظاهر، وعلى مستوى الشكل والإخراج، لتسهيل عملية التسلل، وعبر شركات محلية كما يحصل بالفعل، على طريقة الأنشطة الاستخباراتية والأمنية تماماً، لكن في عالم الثقافة والتربية بدلاً من السياسة والأمن، مما يتطلب الدقة والحذر واليقظة التامة،

(23) روبرت، وورث: حزب الله... شبكة قومية من المدارس لإعداد جيل جهادي، جريدة الشرق الأوسط، العدد (10952)، 22 نوفمبر تشرين الثاني (2008).

(24) انظر الكتاب المهم في هذا المجال:

Le Thomas Catherine, Les écoles chiites au Liban: Construction communautaire et mobilisation politique, ibid, p 221,222

وهنا يجدر الالتفات إلى أن بعض هذه المناهج قد يغري التربويين بحدائثة الأسلوب والتقنيات والمنهجية، والتي لا تظهر ما يريده بشكل واضح في الكتاب، بحيث يكون هدفه قد وضع بشكل خفي، لذلك فالمطلوب «إيجاد البدائل المناسبة من خلال العمل الجاد على تطوير المناهج، على صعيد المحتوى والمنهجية والتقنيات والأدوات، مع المحافظة على الأصالة والدقة في إدخال القيم والمواقف والأهداف التربوية ضمن الكفايات الأساسية المقصودة، وتدريب الأجهزة التعليمية عليها بما يمكنها من العمل على تحقيقها في ساحة الدرس»⁽²⁵⁾.

أما الإنجازات المحققة خلال العقدين الأخيرين بتقديرهم، وعلى الرغم من حدائثة التجربة «فقد حققت تقدماً في مجال تأصيل الثقافة والتربية، وفتحت الباب واسعاً أمام المزوجة بين الدين والعلم، وأبرزت حالة التكامل بينهما، وهي بهذا تؤسس لمنهج متوازن يضع التطور العلمي في الطريق الصحيح والسليم. كذلك نجحت في خلق بيئة تربوية واجتماعية تعين المتعلم على الالتزام بالقيم والأخلاق الإسلامية»⁽²⁶⁾.

تتمثل أبرز الصعوبات التي تواجه المدرسة في توافر الأطر العلمية والتأهيلية التي تعنى بتخريج الكوادر التعليمية المدربة؛ ليأتي المنهج متناسباً في الحد الأدنى مع المبدأ الذي انطلقت منه. وهي تحدد رؤية تخدم التغيير الثقالي المطلوب، بحيث يمكن تسويقها في دوائر التخطيط والقرار التربوي الرسمي في لبنان، بما يوجد سداً في مواجهة الهيمنة الأميركية على المناهج التربوية في لبنان. وهذا يتطلب الدخول إلى عالم تأليف ونشر الكتاب المدرسي الذي يراعي الشروط والمواصفات الحديثة، ويجسد الثقافة والمرتكزات الفكرية والأخلاقية والقيمية الأصيلة، وخصوصاً على مستوى التربية الدينية، حيث كانت البداية في إطلاق المناهج التربوية الإسلامية، التي يغلب عليها حتى الآن البعد المعرفي التلقيني، لذلك تعتبر أنه من الواجب تحديث

(٢٥) مساهمات المدارس الإسلامية في صياغة منهج أصيل، بحث منشور على موقع مؤسسات ومدارس المهدي في ملف الدراسات والأبحاث بتاريخ 19 يونيو (حزيران) 2013 على الرابط التالي:
<http://www.almahdischools.edu.lb/component/k2/item/317>

(26) المرجع السابق، ص2.

المنهج والطرائق المعتمدة ليدخل فيها من النشاطات ما يجعل الطالب يكتشف ويحلل ويتخذ موقفاً، ويتعاطف ويبني سلوكاً والتزاماً تجاه كل ما يمر به في المنهج، وتحديداً في المرحلة الثانوية التي تمثل مرحلة التشكل الفكري للطالب، خصوصاً مع المقارنة بالمناهج الحديثة التي تمتلك قدرة على الجذب وإثارة الاهتمام، وتفعيل دور المتعلم على حساب التلقين. وهي تخلص إلى أنه بإمكان المدرسة الإسلامية أن تُدخل في الكفايات الخاصة بكل صف وبكل مادة، القيم الإسلامية المتناسبة، والتي يتم اختيارها بدقة فائقة لتلائم المرحلة العمرية والمادة الدراسية، بحيث توضع لها طريقة تربوية مؤثرة ونشاطات متناسبة من شأنها أن تنتقل باهتمامات المدرسة من المجال المعرفي إلى المجال السلوكي التربوي، لكن هذا يفترض وجود مهارات خاصة عند المعلم ينبغي اكتسابها وتأهيله لها⁽²⁷⁾.

يشرح نعيم قاسم مفهوم «التربية الإيجابية» القائمة على الإيمان والتسليم وفهم طريق الولاية، ثم جهاد النفس وأداء العبادات والقيام بالتكليف وتمثل الفضائل الأخلاقية للأئمة⁽²⁸⁾. والتربية الإيجابية تعني أيضاً أن المنهج المتعلم (Taught Curriculum) من التلميذ في مؤسسة مدرسية لا ينتج عن المنهج الدراسي المعلم (Learned Curriculum) فحسب، إنما هو الثمرة الطبيعية والنتيجة الواقعية لأنواع أخرى من المناهج مثل المنهج الموازي أو الجانبي (Collateral Curriculum) والمنهج الخفي أو المضمّر (Hidden Curriculum) وهما يتشاركان في بناء اتجاهات التلاميذ وتكوينهم وترسيخ قيمهم وهويتهم. لكن أهمية المنهج الموازي تتمثل بكونه غير معلن، وتالياً غير معروف للتلاميذ والأهل، وغالباً غير معروف أيضاً من المعلمين وغير مقصود منهم، لذلك فتأثيره خطير وحاسم في إنتاج قيم مضمرة لدى المتعلمين، وتعليمها دون علمهم وعلم الأهل والمعلمين، فهو ينتج ويتبلور من ثقافة المدرسة والفلسفة التربوية المتبناة فيها، ومن الأنظمة

(27) نفسه، ص3.

(28) وذلك ضمن فعاليات اللقاء السنوي العام لمعلمي التربية الدينية للعام 2018/2017 الذي عقد يوم الأحد 2017/8/27 في قاعة الجنان التابعة لمدارس المصطفى في بيروت، حيث ألقى محاضرة تربوية بعنوان «مفاهيم مفتاحية للتربية الإيجابية» على الرابط التالي: <http://www.islamtd.org/#!Lecture/E32C38008B56A12042BBCA8752699B5E942CEA06/ReligionEducation>

المدرسية المعتمدة لا سيما تلك المتصلة بالتلامذة، ويمكن أن يلعب هذا المنهج دوراً سلبياً في حال عدم الاهتمام به وبالمخرجات المتوقعة منه، لكنه يتحوّل إيجابياً عند إدخاله تحت دائرة الاهتمام والرعاية والسيطرة الواعية والتحكم الهادف⁽²⁹⁾.

التربية بالقُدوة: هي المفهوم المعتمد في منهاج «حزب الله» ومنظومته التعليمية- المدرسية، بل هي أسلوب يسعى لتعميمه في منهاجه الحزبي كميّار لترقية الكوادر، يشرح رئيس لجنة المباني الفلسفية للتربية والتعليم في الجمهورية الإسلامية في إيران علي رضا صادق زادة⁽³⁰⁾ مفهوم التربية بالقُدوة، وذلك في محاضراته التي تحدث فيها بدعوة من المؤسسة التربوية للتربية والتعليم، وجمعية كشافة الإمام المهدي، ومركز الأبحاث والدراسات التربوية في بيروت⁽³¹⁾، ووسط حضور كثيف من الأساتذة والمربين، وبغض النظر عن المقاربة الدينية التي اعتمدها لمناقشة موضوع تتداخل فيه الأبعاد المعرفية والتربوية والنفسية والاجتماعية، فإن اللافت في محاضراته التوجيهية هو التركيز على هذا المنهاج والدعوة إلى تأصيله، من خلال إبراز قصص مختارة ومنتقاة بعناية عن الشهادة والفضيلة والتزكية لأخلاق الأئمة وآل البيت وصحبهم، وإسقاطها بشكل مبرمج ومتعمد على شهداء وشخصيات وقيادات حزبية معاصرة، تملأ صورها جدران كل المؤسسات التربوية التابعة للحزب وكشافة المهدي، وترافق الفتيان حتى خارج البيئة المدرسية إلى الحي ومفارق الطرق والساحات العامة، مزينة بالعبارات ذات الدلالة العاطفية المؤثرة.

يعترف صادق زادة بأن هذا الأسلوب تقليدي، والمقصود هنا بالتقليدي أنه يقوم على المحاكاة وتقليد الآخر، ولا يقوم على الإرادة والوعي، وأنه لا يربي العنصر

(29) انظر في هذا المجال ورقة عمل إلى مؤتمر: القراءة والنهوض الثقافي- الأفق الممكن، في 20 أبريل (نيسان) 2015 بعنوان «المشاريع والبرامج التعليمية- تطوير آليات جديدة» قدمها حسين يوسف، منشورة على موقع جمعية التعليم الديني - مدارس المهدي، على الرابط التالي:

http://www.almahdischools.edu.lb/index.php?option=com_k2&view=item&id=2058:%D8%A7%D9%84%D9%85

(30) رئيس لجنة المباني الفلسفية للتربية والتعليم في الجمهورية الإسلامية في إيران، وهو المتخصص في ميدان فلسفة التربية، وعضو الهيئة العلمية لجامعة «تربية مدرس» والمعاون الثقافي لجامعة المتقنين، ونائب رئيس هيئة فلسفة التربية والتعليم في الجمهورية الإسلامية.

(31) المحاضرة منشورة على موقع مركز الأبحاث والدراسات التربوية، على الرابط التالي:
<http://esrc.org.lb/article.php?id=4277&cid=239&catidval=0>

النقدي لدى الفرد ويكبح الإبداع والتميز، فضلاً عن استحالة الوصول إلى الإنسان الكامل وتمثله في الواقع لكي يكون هو القدوة والمثل الأعلى. الإشكالية الثانية التي يثيرها هذا الأسلوب، أن التربية عبر الأنموذج تفترض صناعة لصورة افتراضية متخيلة لنماذج صالحة للتمثل والمحاكاة والعمل على تعميمها؛ لكنها عملياً تصبح عقيمة بعد أن يتجاوز الإنسان فترة الشباب؛ لأن الشخص البالغ يصل إلى مرحلة النضج، بحيث يشعر بعدم الحاجة إلى اتباع الآخرين ويتعرف تالياً إلى نماذج جديدة غير مؤطرة في السردية التاريخية للجماعة. في المحصلة موضوع التربية بالقدوة يواجه انتقادات عملية ونظرية في الدراسات التربوية الحديثة. على الرغم من كل هذه الانتقادات، يحاجج علي رضا صادق زادة ويناقش هذه الآراء للإفادة من هذا الأسلوب، أي التربية بالقدوة، وإحداث التعبئة المطلوبة كأثر مباشر في إعادة تشكيل شخصية المتعلمين وبناء هويتهم.

في المحصلة «التعبئة» بهذا المفهوم تشبه «القبولة والتنميط» فهي لا تحتاج إلى عقل المتعلم إلا بقدر ما يكون عقلاً «أداتياً»، بمعنى أنها لا تحتاج إلى تشغيل وظائف العقل المعقدة مثل التحليل والنقد والتركيب والتقييم، بقدر ما تحتاج إلى المحاكاة والاستظهار والتركيز على حفظ المعلومات وفهمها، وإتقان المهارات المراد نقلها للمتعلمين مع تكثيف تكرارها، وتنويع سبل الحصول عليها بهدف القيام بوظائف محددة، يكون فيها (المعلم - المربي - القدوة) محور العملية التعليمية وحامل الرسالة التي يصبح معها الانصياع والالتزام والانضباط، هو معيار النجاح في سلوك المتعلمين.

ترتبط فلسفة الحجاب والستر، في منظومة «حزب الله»، التربوية بعملية القبولة والتنميط، فضلاً عن ارتباطها بالبعد الأيديولوجي والشرعي الذي يسعى إلى غرسه في عقول الفتيات ومن خلالهم في البيئة الأهلية الحاضرة، إذ يلاحظ أنه بالإضافة إلى سياسة الفصل بين الذكور والإناث في قاعات الدرس والملاعب والأنشطة، تولي مؤسسات الحزب التربوية عناية كبيرة بإقامة احتفالات «التكليف الشرعي» السنوية للفتيات اللواتي بلغن هذا السن، والذي يبدأ بعمر التاسعة، وهي

احتفالات تحرص المؤسسات التربوية والكشفية على التعامل معها بمنتهى الحرفية، حيث يحضرها -فضلاً عن الأهل- شخصيات وقيادات بارزة، تظهر فيها الفتيات بلباسهن الموحد الأبيض، وهن يؤدين قسم الوفاء والحفاظ على حجابهن والسير على درب السيدة الزهراء⁽³²⁾. وإذا كان الشادور الأسود قد لقي رواجاً في الأوساط والبيئة الموالية عقائدياً وسياسياً لحزب الله وانتشر بفضل التشجيع والترويج، إلا أنه لا يزال في البيئة الشيعية عموماً لا يحظى بالقبول الواسع كما هو حال الحجاب بصيغته التقليدية المحلية.

وفي دراسات أجريتها على مضمون بعض كتب التعليم الديني المدرسي بهدف تتبع عنصر «الأنا والآخر»؛ وجدنا أن كتب تعليم الدين تتوجه لأناس يعتقدونه بالأساس، وهذا أمر مفهوم ومشروع، لكنه يصبح سلبياً عندما يتم تغييب الآخر أو إلباسه ذاتاً أخرى ليست حقيقته في سياق عملية التعليم هذه. فالإشارة والإحالة إلى (نحن وهم) و(شيعي وسني) و(مسيحي - مسلم) و(إيماننا - إيمانهم) و(تعاليمنا - تعاليمهم)، كلها مصطلحات مركزية تشدد على الخصوصية والهوية المتميزة للدين، مع إغفال يكثر أو يقل للدين الآخر. حتى ليتمكن القول: إن الآخر المختلف دينياً أو حتى مذهبياً موضع استبعاد في أغلب الكتب، وإن حضر فنادرًا، ومن باب سلبى أحياناً، كاستحضاره لإظهار التفوق عليه والتمايز عنه، وبما يستبطن المقارنة بين المؤمنين والضالين إذ لم نقل بين الكفر والإيمان، ثم بعد ذلك يغيب هذا الآخر في سياق الكتاب.

تركز غالبية هذه الكتب على «الأنا المذهبية» بشكل مكثف، بما يجعلها هوية مرجعية فوقية على كل المشتركات مع الآخر، وعلى كل الصفات الجميلة المفقودة أو القليلة عند الآخرين، وهذا ما يشكل تمييزاً ضد كل آخر مختلف، وتجهيلاً مقصوداً لما فيه من صفات جميلة. إنه إقصاء وتغييب عمدي للآخر الديني والمذهبي من حقل القيم الجميلة.

(32) تغطى مثل هذه الاحتفالات إعلامياً وتُنتشر على مواقع مدارس المهدي والمصطفى والإمداد، انظر على سبيل المثال الرابطين التاليين:
<http://www.souronline.org/EventDetail.aspx?id=14262>
<http://alnabatieh.com/index.php/2014-03-01-09-08-08/item/2811-a>

الخاتمة

أدت أغلب كتب التربية الدينية إلى تكوين صور مسبقة ومشوهة ومنمطة ونهائية عن الذات والآخر ومناقضة للتسامح، وبذلك أوقع الإفراط في التركيز على «الأنما المذهبية» كتب التعليم: التربية والتعليم الديني في فح الطائفية والتعصب وتصنيف الناس حسب أديانهم ومذاهبهم. ينطبق هذا الأمر على شبكة مدارس حزب الله، كما ينطبق على المدارس الأخرى التي تديرها أحزاب طائفية وعقائدية في لبنان⁽³³⁾، وهو ما أبرزته عديد من الدراسات، ومنها الأرقام التي أفضت إليها الدراسة التي تمحورت حول «شعور الانتماء الوطني وعناصر الثقافة المواطنة» التي عرضها الخبير التربوي اللبناني علي خليفة، والتي بينت أن (العائلة أو الطائفة الدينية) هما ما يذكره (63.5%) من التلاميذ في لبنان، كتعبير عن انتمائهم الجماعي، ولا يأتي شعور الانتماء للوطن إلا في مرتبة أخيرة بنسبة لا تتعدى (27%) من طلاب المدارس التي شملتها الدراسة، مما يشير إلى تشتت شعور الانتماء الجماعي لدى المواطنين، حتى نكاد نتحدث عن غابة من الانتماءات الطائفية في ظل غياب المواطنة ومنظومة مكوناتها على الصعيدين الاجتماعي والسياسي⁽³⁴⁾.

«حضور الجماعة» ممثلة بسرديتها التاريخية ومسلحة بكامل عدتها المعرفية المقدسة يمثل الأساس الموضوعي لهذا المنهاج، فهو يسحق فردانية الفتيان ويعزز ميول التطبع والتقولب عندهم. فالجماعة/ الطائفة بحضورها الطاغي في المكان تمثل سلطة معرفية مثل الدولة والقبيلة، وهي تتمظهر في المؤسسات الاجتماعية ساعية عبر وسائلها الأيديولوجية (المدرسة، الإعلام، المؤسسة الدينية...) إلى فرض التماثل الاجتماعي والمعرفي في الأعراف والعادات والتقاليد والتوجهات السياسية. والمؤسسة التربوية في هذا السياق تمارس تأثيرها الكبير على الفرد إلى درجة إلغاء

(33) Jonathan Sixtus Kriener: *Lebanese – But How?: Secular and Religious Conceptions of State and Society at Lebanese Schools (Muslimische Welten / Empirische Studien zu ... Orient-Okzident Mainz (KOOM))* (Englisch) Taschenbuch – 14. November 2011, pp 82, 110, 112, 157, 167, 219

(34) انظر: جريدة السفير اللبنانية (30 مايو/ أيار 2011) وموقع جنوبية على الرابط التالي:
<http://janoubia.com/2011/05/30/63-%D9%85%D9%86->

ذاتيته والحجر على أفكاره، حين تتعارض مع أفكار الجماعة التي تمثلها المؤسسة التربوية وامتداداتها، فهي هنا أحد أركان عملية القولية المؤدجة التي تحجر على الإبداع والابتكار وحرية التفكير والنقد والمساءلة في المجال السياسي والأدبي والفني، بل وحتى على مستوى السلوكيات اليومية التي تبقى مؤطرة بما ترتضيه الجماعة بشكل عام، على الرغم من خروج بعض الحالات وتمردها على الذهنية السائدة وسرديتها الجاهزة الموروثة، إن باللباس أو السلوكيات والعلاقات والأفكار، ذلك أن هذا الخروج يقابل بتجريم الجماعة لفاعله وتسفيهاها له ومحاصرته بشتى أنواع الممارسات والمضايقات، التي تنتهي بترويضه وبانكفائه أو خضوعه في بعض الأحيان.

المنهاج التربوي المعتمد يكرّس البنية الأبوية وسلطاتها البطركية، ويؤطر رحلة اكتشاف الذات والعالم عند المتعلم بشكل يجعلها خاضعة لإكراهات سلطوية ظاهرة وخفية، مباشرة ورمزية، تدعي امتلاك الحقيقة المطلقة وترفض النقد والمساءلة وأي محاولة لاكتشاف الذات والاستقلال، بعيداً من النسق التربوي للأسرة والمدرسة والإطار المرجعي الطائفي المحدد لانتظامها في نماذج تفرض الامتثال لسلسلة من الضوابط والنواهي، تعرض مخالفيها للتهميش والنبذ عند أي محاولة للخروج عليها، وهي بهذا تتقاطع في كثير من محاورها مع منهاج التربية الذي اعتمده تنظيم الدولة الإسلامية، حيث أقام مدارسه التربوية⁽³⁵⁾.

عملية التنشئة الاجتماعية التربوية في هذا الإطار، تصبح سيرة لإعادة إنتاج الهوية للمتعلمين وتعريفها بالاتجاه الذي يريده مالكو وسائل الإكراه، والتي تحوّل التربية إلى مجموعة من أساليب التمييط تؤدي مخرجاتها إما إلى تدجين اجتماعي، يطمح إلى صنع شخصيات وأجساد طيعة تدمن المسايرة والمداهنة والولاء والانصياع، أو إلى عدوانية مفرطة تجاه الآخر، تتخذ شكل علاقات اضطهادية تفرز نوعاً من العنف العلائقي، الذي قد يتفجر فردياً ما لم يتم توظيفه في سياق جماعي يخدم مالكي وسائل التدجين والترويض وأهدافهم القريبة والبعيدة.

(35) Jacob Olidort: Inside The Caliphate's Classroom. Textbooks, Guidance Literature and Indoctrination Methods of the Islamic State. See The Washington Institute For Near East Policy(2016):

<http://www.washingtoninstitute.org/ar/policy-analysis/view/inside-the-caliphates-classroom>